الإستلاب اللاهوتي والبديل الإبستولوجي التوحيدي عند محمد أبي القاسم حاج حمد

Theological alienation and the alternative monotheistic epistemology of Muhammad Abu al-Qasim Haj Hamad

محمد قندوز [1*]، بوجلال نادية[2]

[1] مخبر مجتمع تربية عمل ،جامعة مولود معمري –تيزي وزو: mohammed.guendouz@ummto.dz

[2] مخبر مجتمع تربية عمل ،جامعة مولود معمري –تيزي وز .boudjleln@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/07/15 تاريخ القبول: 2024/03/12 تاريخ النشر: 2024/04/24

ملخص:

ارتبطت الحضارة الإسلامية بالقرآن الكريم ارتباطا وثيقا، إذ تعد نصوصه بمثابة القوانين التي تحكم هذه الحضارة في شتى مناحيها كما أنه يحكم الفرد المسلم فيشرع لعباداته، ويضبط تصرفاته ونزواته ويحدد منطلقاته، وغاياته وعلاقته بالآخر وبدوره داخل جماعته أخلاقيا وسياسيا، غير أن القراءات والاجتهادات المعرفية التي أحيطت بالقران الكريم، أفضت لنتائج كان من شأنها أن تكبل المسلم المعاصر وتقعده عن دوره داخل حضارته وخارجها، هذا ما دفع بمحمد أبو القاسم حاج حمد للوقوف على هذه الاستلابات اللاهوتية ومحاولة استيعابها والتحرر منها بمنهج معرفي من داخل القرآن نفسه.

كلمات مفتاحية: الاستلاب ، اللاهوت ، الرؤية التوحيدية، اسلمة المعرفة ، الجمع بين القراءتين .

Abstract: La civilisation islamique était étroitement liée au Saint Coran, car ses textes sont considérés comme les lois qui régissent cette civilisation dans ses divers aspects. Il régit également l'individu musulman, ainsi il légifère ses actes de culte, contrôle ses actions et ses caprices. , et définit ses points de départ, ses objectifs, et sa relation avec l'autre, et son rôle au sein de son groupe moralement et politiquement. Le Saint Coran a conduit à des résultats qui auraient entravé le mouvement intellectuel et la créativité civilisation elle du musulman contemporain et l'ont empêché de jouer son rôle à l'intérieur et à l'extérieur de sa civilisation Qu'est-ce qui a poussé le penseur soudanais Muhammad Abu al-Qasim Haj Hamad à se. renseigner sur ces aliénations religieuses et à essayer de les assimiler et de s'en libérer.

Keywords: alienation; theology. monotheistic vision; Islamization of knowledge; Combine the two readings .

[*] المؤلف المرسل

1. مقدمة:

إن المتأمل للخطاب التراثي الإسلامي-وإن كان على عجل- سيقف على مسائل وقضايا واطروحات معرفية وفكرية استهلكت الوقت واستنفدت العقل المسلم وأسالت كثيرا من الحبر – وأحيانا الدم – ولا تزال ممتدة ومفتوحة مستلبة حاضر المسلم لصالح ماضيه، فلا هو ساير الحاضر وما يفرضه، ولا هو تخلص من الماضي وما يثقله، فيجد نفسه يقوم باستدعاء آليات بحث ومناهج معرفية أسس لها ضمن شرطية تاريخية لا ينتمي إليها، تلفيقا أو توفيقا، يحمل بين ثناياه الكثير من التناقضات، بل وكثيرا ما ينشد به المقاربات أو المقارنات للحاق بركب أي فكرة جديدة وافدة عليه بحكم مستجدات العصر تبريرا أو دحضا .

كل هذا دفع بمحمد أبا القاسم حاج حمد مهموما بقضايا المسلم المعاصر، إلى أن يأخذ موقفا من كل هذا الخطاب التراثي الإسلامي الذي يستلب الفرد المسلم المعاصر ويعيق حركته الفكرية وتقدمه الحضاري من داخل الدين نفسه، فبدل أن ينطلق نحو أفاق السماوات والأرض متحررا ومحررا لقدراته الإبداعية عملا وفكرا، ارتد نحو عبودية مقعدة وجهل مغلف بالتقديس وعلاقات قائمة على السمع والطاعة دون فهم ضوابطها من جهة، والتهديد و الوعيد بالحدود الغليظة،كالقتل والرجم أو الهجر وتجريم السؤال وتضيق مجاله، ومجابهته بفتاوي جاهزة كالزندقة ومخالف الجماعة والمروق من الدين كله من جهة ثانية كل هذا يضطرنا لنتساءل:

ما الذي دفع بمحمد أبا القاسم حاج حمد لتشخيص هذه الاستلابات اللاهوتية التي تكبل حاضر المسلم المعاصر في منجزه الحضاري والديني وعلاقته بالأخر؟. ثم ما هي أهم النتائج والمظاهر التي أفرزها هذا الاستلاب اللاهوتي؟ ثم ما هي الإبستومولوجيا البديلة التوحيدية التي طرحها حاج حمد لتجاوز هذه الاستلابات اللاهوتية بعد أن استوعبها؟.

2. الخطاب التراثي وبداية التأسيس للاستلاب اللاهوتي :

إن الحفر المعرفي والمنهجي في الحضارة الإسلامية يستوجب منا البدء بالقرآن الكريم والتوقف عند مضامين آياته، من حيث منطلقها المكاني والزماني ومسارها التاريخي وتقديمها للبعد الغيبي في كل هذا. غير أن الوصول إلى كل هذا أضحى كما قلنا صعبا ومتعذرا يتطلب عدة معرفية وأدوات منهجية معاصرة كونه محاط بتراث ضخم جدا من القراءات البشرية، سواء من المسلمين أو من

غيره كالمستشرقين، جعلت من الصعب بمكان التعامل معه مباشرة و دون وساطة " وأصبح فك الارتباط بين مواصفات الفكر الديني البشري الذي ولد اللاهوت وبين حقائق النصوص الموحاة عملا يتطلب جهدا معرفيا وبذات الكيفية التي عمد القرآن لضبط و تصحيح الدس المتعمد . إلا أن نفس المشكلة التي عادت لتلتف حول تأويلات وتفسيرات النص القرآني دون القدرة على المساس بالنص نفسه "[1].

هذا المنطق التراثي ألقى بفهمه على كل التاريخ الإسلامي، فلا يمكن التفاعل مع القرآن ككتاب متعالي إلا بالمرور من خلاله والذي يغلب عليه منطق السكونية و الارتهان لفترة زمنية محددة، ترجع إليها جل التيارات الدينية في تعاملها مع قضايا الإسلام الراهنة، كالاحتكام مثلا الى أسباب النزول وتغول اللغة الفقهية على المعنى القرآني وقضية الناسخ و المنسوخ والأحكام الفقهية خاصة أحكام الحدود، التي اتسمت بالإصر والأغلال جراء الدس اليهودي في مواجهة إفرازات الحضارة الراهنة و تحدياتها "إن القرآن يتكشف لنا الآن عن تركيبة تعلو على أسباب النزول المحلية وتعلو على البناء اللفظي المجرد وتعلو على خصائص المحلية العربية الأمية أي أنه يتحول في عصرنا إلى كتاب جديد يحمل كل أبعاد الفكر الكوني الذي يهيمن على تجربة الإنسان ضمن حياة كونية متسعة "[2].

وهنا يكمن المعنى ويتمحور المبنى فأنى لهذا الخطاب التراثي اللاهوتي أن يعي الواقع بمجمل مناحيه و مفترق تمظهراته، وتشكلاته الاجتماعية والأخلاقية والسياسية الوافدة من الغرب الأكثر تطورا وتقدما، والذي يزاحمها ويتحرش بها، وهي مذهولة عن مقاصد القرآن الكونية وغاياته المنهجية والمعرفية وعلاقتها بالبعد التاريخي والغيبي، متكلسة بخطاب دعوي وعدة منهجية استنفذت وظيفتها التي وجدت من أجلها.

لتجد هذه التيارات السكونية نفسها في موقف حرج، فلا هي تقوى على فهم الواقع الطارئ وأمره ولا على العودة إلى القرآن ككتاب كوني مطلق وممنهج ، فتضطر لابتداع مواقف تركيبية تلفيقية كمخرج لها " .. فالقول بان القرآن هو تعبير عن حقبة زمانية ومكانية في تطور إنتاج الأفكار البشرية، هو قول مرفوض ولكن يقابل هذا الرفض تقيد مماثل بمفاهيم القرآن ودلالاته حكما بعصر التنزيل والتدوين كما يقول الوضعيون تماما فكلاهما قد أغلق على القرآن إمكانية امتداد في الزمان والمكان عبر حقول معرفية متعددة ومتنوعة "[3].

وأمام هكذا موقف عاجز وساكن، فلاهي تقوى على التخلص من الرؤى السابقة التي نظمت وأطرت لها مسار تحركها الفقهي ومجال إدراكها المعرفي، ولاهي قادرة على الدفع بهذه الرؤى لتجاوز إفراز العصر ومتطلبات المسلم المعاصر، ولاهي تقوى على مجابهة الغرب المتقدم فتجد نفسها خارج الزمان والمكان " فالحركات الدينية إذ تنأى بنفسها عن فهم قوانين الحركة الاجتماعية وصيرورتها ومظاهرها التاريخية التفكيكية والتركيبية في آن واحد فإنها تصنع غاياتها خارج الزمان والمكان "[4]،

فإذا أصبحت خارج الزمان والمكان أمكن لمخيالها الديني أن يسترجع الماضي كما هو فتحول الدين إلى لاهوت وتحول الفقهاء إلى هيئة كهنوت مبررة ذلك بمصادر التشريع "هذه العمليات حبذت صعود طبقة رجال الدين وازدياد أهميتهم على مستوى السلطة الفكرية والسياسية "[5].

كنتيجة حتمية للهروب الى الأمام بنصوص القرآن التي تم تحنيطها وتحريم المساس بتفسيرها الأول الذي يستلبها لزمان ومكان معين ومحدد، فأضحت التفسيرات مقدسة ومقدمة على النص القرآني ذاته فلم تنتج إلا طوبوية ماضية " وهذه الطوبى التي تقوم على فكرة العودة الى الأصول والتي لا يمكن أن تدفع إلى أي عمل إيجابي ،هي التي تفسر نشوء الحركات الإسلامية الراهنة ومواقفها الرجعية والمحافظة العدوانية "[6].

الذي نقف عليه بوضوح تام أن الخطاب المعرفي الديني الذي حاولت التيارات السكونية تصديره هو منطق لاهوتي يرهن فيه اجتهاد الأحياء لتوجيهات لأموات، منطق زاد الطين بلة والحمل المعرفي والمنهجي تكلسا ومراوحة بنفس الكيفية التي وجد من أجلها سلفا، مكبلا لاجتهادات العقل المسلم ومندفعة إلى فتاوى التكفير والزندقة وموقف العداء من الآخر داخل الملة أو خارجها، وتغليظ أحكام الحدود الشرعية والقفز على المسائل الشائكة سياسيا وعلميا بفكر الإرجاء والاحتجاج بالقضاء والقدر "فحركات الصحوة الآن تريد أن تحقق في ذاتها بمنطق سكوني لا يأخذ بالمتغيرات على تقدير أن الله سيظهر دينه على الدين كله دون تفاعل مع جدل الإنسان والطبيعة" [7].

فالمنطق اللاهوتي إذن يتمسك وبشدة بالمرجعية التراثية على أساس أنها الشاهد الوحيد على التنزيل الإلهي، مرتبطة بالعصر الذهبي لهذا التنزيل بتطبيق معصوم، مشترطا على كل منهج

اجتهادي جديد أن يلتزم بهذه المرجعية التراثية، بل يذهب الى أبعد من ذلك حين يرفض فكرة تجديد أدوات البحث أو طرئقها وهنا مأزق جميع مدارس الإتباع والنقل.

2.مظاهر الاستلاب اللاهوتي:

هذه المعرفة اللاهوتية التي أسست لها القراءات التراثية السكونية أدت الى نتيجة خطيرة جدا تمثلت بداية الأمر في :

3-1- تقزيم دور الإنسان - المسلم المعاصر- وجعله مقولة هامشية لا أكثر، ليصبح مجرد متلق ذاعن السمع والطاعة، تحكمه نصوص قرآنية بتفسيرات قارة ومقدسة، فلا يتفاعل مع الطبيعة ولا يفعل بها منقادة أفعاله وأفكاره لصالح قدرة إلهية مطلقة مجهولة الحكمة، غير واضحة الغاية تستنزف طاقته الروحية والإبداعية. فمثلا الإنسان الذي فقد دافع عيشه في المجتمع ،فيهجره "..ففي بعض الأحيان يأخذ صورة الانتحار : كان يلقي بنفسه من جبل ...ولكن بعض المنسحبين الذين أنهوا دورهم يفعلون كذا، ولا يتصرفون التصرف نفسه، وإن كان الدافع واحدا ....وهذا النوع الثاني لا ينهي حياته الاجتماعية انتحارا بالسكين، ولكن يعتزل المجتمع، ويفر من أداء الواجب لأنه لم يبق له مسوغ .. " [8].

3-2 كما أن هذه الخطاب السكوني طرح مقولات الوحي والدين بطريقة دون مستوى مناهج المعرفة العلمية والنقدية المعاصرة، ما نجم عنه ظهور تأويلات متناقضة للنصوص القرآنية، دفعت بأغلب الفلاسفة والمفكرين إلى إبعاد الخطاب الديني جملة في معالجاتهم الفكرية والعلمية لمأزق الحضارة، ما عمق الأزمة الروحية للإنسان المعاصر أكثر من جهة أخرى " بداية من استلاب بالعبودية ومعنى الطاعة، وتفريغ شحنات وعيه ونزوعه العلمي ثم تجريده عن ممارسة أي شكل من أشكال تقرير سيادته بمنطق الحاكمية الإلهية، مع دونية الأخر الذمي، وتدنيس المرأة واستلاب الفعل الحضاري وقوة العمل، وإعطاء معنى تحقيري للحياة، ودمغها بأزلية التفاوت الاجتماعي والانقسام الديني، إضافة إلى الاصطفاء العرقي والتركيز العقوبات الحسية ...ثم بعد ذلك كله لا تؤدي هذه التضحيات وأشكال القهر والحرمان إلا إلى جنة غرائزية تعوض عن كبت هذه الغرائز في الدنيا وتسود الصورة" [9].

ليس هذا فحسب فالقراءة اللاهوتية تغولت وانسابت متحركة في مجرى كل حياة المسلم المعاصر ملتهمة حركته وسكونه، وعلاقته بالآخر فشرعت بمزاجها وحدد المباح والمحضور وفق طرحها السكوني ولعل أبرزها وأكثرها خطورة:

3-3الاستلاب الكامل بالعبودية لله كلها عبودية مطلقة مغلقة لا نقاش فيها ولا اعترض يتمثل الله فيها ذا سلطة مطلقة نافذة أفعالها ومحسوم أمرها، يخضع لها الإنسان خضوعا تام فيفضي به الأمر إلى هجر دراسة الكون وسننه والابتعاد عن تأمل الظواهر وقوانينها والوقوف على هيئتها تشكلا و تفاعلا، فما هي إلا من قدرة الله و يمكن إبطالها في أي وقت أو تجاوزها دون معرفة أسبابها أو الرجوع الى موجباتها.

فالإرادة البشرية هنا مسلوبة وفعل الإنسان متكلس قد سطر له في عالم الغيب لا يحيد عنه، فماذا سيفعل الإنسان في عالم ذاته وظاهر ما يحيط به مسلوب، ومشكل بطريقة تستعص على فهمه و إدارته؟ ويعجز عن تفكيكه ناهيك فهم غايته وسر حركته، فيظهر الإنسان مكبلا على مستوى النزوع العلمي مستلب الوعي والإدراك من جهة والحركة والفعل من جهة أخرى.

فلا يقدر على شيء متقبلا وضعه بل و راض به، لايكلف نفسه عناء البحث والسؤال لأن هذا من قبيل ما لا يطيق معالجته، فيكون مبلغ علمه أن يعبد الله عبادة حرفية كما خطته الخطاب التراثي اللاهوتي، متذللا ذل العبد الذي يجهل سبب هذا الركوع والسجود منصرفا عن الطبيعة وظاهرها وباطنها فلاهو مدرج لما يجري أمامه منها، ولا يفكر في النفاذ لما توارى منها عنه " مفهوم العبودية المركبة على ما كان في الثقافة السابقة من حالات الاسترقاق اي المجال المعرفي الذي كانت تستخدم ضمن منظومة مفردة العبودية ثم يمتد تحليل هذه المفردة الى - العبودية – ضمن علاقات ارتباط مع أوضاع التعبد "[10].

3-4استلاب الفعل الحضاري وذلك بالاكتفاء عن طرح السؤال النقدي النوعي، الذي يدفع الأمة إلى مصاف الأمم ذات الركب المتقدم علميا ومعرفيا وحضاريا لصالح النزوع الأخروي - دار الآخرة - فما قيمة الاجتهاد التقني و التكنولوجي والفلسفي، إذا كان الإنسان آيل لحتمية مطلقة ثابتة هي الموت فأصبحت الحياة بكل تفاصلها الكبرى و جزيئاتها الضحلى دار عبور تحت مسمى وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

هذا الفهم للحياة انعكس سلبا على مردود المسلم العملي / العلمي و دوره داخل الحضارة العالمية و على فعله على التاريخ وحركته. فالتصور الأخروي لما سينال هذا المسلم من جنات وانهار و ممتلكات عطاء جزاء حسنا وسخيا نتيجة لصبره وزهده، ولد لديه ظاهرة الانسحاب من الساحة العالمية وداخل مجتمعه و التي تسمى بالزهد و التصوف.

فهذا النوع من الفكر الذي يقفز على مشكلات الحياة قفزة عجيبة نحو الآخرة تجعل من الإنسان كيانا عاجزا، لا يملك إلا تمائم الدعاء والإذعان لولاة الأمر من أصحاب العمائم وأصحاب الكراسي، واخطر ما في هذا الاستلاب هو موت الإنسان " بتعبير ميشال فوكو" وبتعبير أخص موت المسلم بمصادرة وعيه جراء هذا الفهم التراثي اللاهوتي المتصلب لنصوص القرآن إذ يعيش خارج الزمان و المكان "إذن لعاش الإنسان خارج الزمان والمكان منعطفا الى العالم الآخر وعاجزا عن إخراج كمالاته الدنيوية " [11]هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فقد حصر الخطاب التراثي خطاب الإسلام العالمي - للناس كافة - الى خطاب الفرقة الناجية، التي ضغطت رحابة الإسلام في مزاجها ورؤاها الذاتية فقدمت نفسها كإطار مجسد للخلاص لكل أزمات الأمة لامتلاكها الحقيقة المطلقة، والأدهى أن هذا الخطاب خطاب أحادي صدر نفسه كممثل للإسلام في مواجهة الحضارة الغربية بلاهوتها الوضعي وجدلها المادي ونسقها الحضاري الصراعي.

فكانت نتيجة المواجهة انحصار الخطاب الإسلامي داخل الحيز الجغرافي والزماني ،فوجد المسلم المعاصر نفسه في الواقع متفرج على انجازات الحضارة الغربية من جهة، ومقلد لها من جهة أخرى " و من هنا نتصور إذن دور المسلم باعتباره رسالة دور المسلم لأنه يعاني أيضا أزمته الخاصة به وهو يعلم ذلك إذ لا يمكنه ألا يعلم و أعداءه أصبحوا اقرب من قبل من معاقله المقدسة " [12].

3-5 إن الاستلابين السابقين في استرقاق الإنسان بمفهوم العبودية الإيديولوجي و الكبح العلمي، إضافة الى تكبيله عن مسايرة التقدم الحضاري والعلمي ، أفضيا إلى استلاب أكثر شناعة و أوثق صلة بحياة المسلم المعاصر في تعامله مع قضاياه السياسية والإدارية، ورؤاه نحو الأخر ودوره ضمن الجماعة، و هو ما يعرف بالاستلاب التشريعي و التنظير السياسي أو ما يعرف بالحاكمية الإلهية التي يتجلى الله فيها حاكما مطلقا "فهو سبحانه و تعالى ... مسيطر على كل شيء... قادر على

كل شيء بيده كافة السلطات كل شيء خاضع لأمره لا معقب لحكمه...لايسأل عما يفعل ويسال الجميع عما يفعلون "[13]، وفيها يجرد الإنسان من تقرير سيادته لصالح الله فهو مخلوق تابع مثله مثل هذا الكون و سائر الأشياء"باختصار فالإيمان الإبراهيمي المشترك بالسيادة الإلهية على الكون والخلق -هو ما يمكن أن نسميه بالسيادة الإلهية كحقيقة واقعة - يؤدي الى إصرار لا تهاون فيه على الحاكمية الإلهية التشريعية والقيمية الخالصة، أو الحاكمية الإلهية كمعيار "[14].

وإن الحاكمية في هذا الكون لم تكن إلا لله وحده لا ينازع ولا يسأل وذلك بالإذعان التام و الإقرار الكامل لأوامر الله، وإرادته النافذة فسلطة الله سلطة مباشرة و آنية تقوم بإنفاذ السلطتين الدينية والزمنية. فقد تمت قراءة نصوص القرآن المتعلقة بالسلطة وتشريعاتها من زاوية الأمر لله يختفي فيه اجتهاد الإنسان، فتم تحويل الدين كله إلى إيديولوجيا غايته في المقام الأول السيطرة على البشر واستعبادهم " في حين تم تحويل الدين من كونه معرفة بالله وبأحكامه وعبادة له الى إيديولوجيا مهمتها السيطرة على البشر من اجل السلطة "[15].

تلك السلطة التي تحكم بسم الله ملتحمة به تفرض هيبتها وسلطانها باسمه بعد أن لينت جميع نصوص المقدس لصالحها وفق هواها. "فقد انطلقت الحركات الجهادية من التفسير التراثي لهذه الآيات في حكمها بالكفر على المجتمعات والأنظمة و بنت هيكل منظومتها الجهادية ... من التفسير الخاطئ للآيات لجهلها التام بحيثيات ورودها "[16].

3-6استلاب وتقزيم دور المرأة والنظر إليها بدونية في الأصل والنقص في التكوين الفيزيولوجي والعقلي وحصر دورها في ما بين الجدران كنوع من الحفاظ عليها وعلى المجتمع من فتنتها " إن أولئك المتمسكين بإبعاد المرأة عن المجتمع والمؤمنين بضرورة إبقائها في سجنها التقليدي قد يبدو في تعليل الدافع النفسي لموقفهم بأنه جنسي بعض الغرابة. بيد أن هده الغرابة لا تلبث أن تزول حينما نعلم أن ليس من مسوغ منطقي، إلا ما يتعللون به من الحفاظ على الأخلاق ، الذي يختفي وراءه مغزى التمسك بالأنثى، فالغريزة هنا تكلمت بلسان آخر"[17].

4. الرؤية الإبستومولوجيا التوحيدية الكونية كبديل للخروج من الإستلاب اللاهوتي :

نصل في منتصف تحليلنا أن الأنظمة اللاهوتية شرعت لنا محتوى للحياة لا يستجيب لجدل الإنسان أو جدل الطبيعة، لهذا فالتيار السكوني الذي يستلب الإنسان بجعله تابعا ومنقادا لمنطق

لم يقف على حقيقة الحكمة من ورائه بحكم القراءات السابقة للقرآن الكريم، فحاج حمد ومن خلال معالجته للاستلاب اللاهوتي يستحضر مقومان أساسيان وهما : الإنسان كقيمة مطلقة في ذاته خليفة لله بالحرية والعلم.

والقرآن كحامل لمنهج معرفي متكامل من شأنه أن يخرج المسلم من ضيق الاستلاب الى أفق الإبداع والتحرر.

أ- فالإنسان حر حرية مطلقة بوجه كافة الاستلابات، فالله قد خلق الإنسان لا ليكبله بقيود الضعف والفتور ولكن ليدفع به لمراكز المقدرة والعلم ومكنه من أدوات الاجتهاد والبحث وكل ما يحفزه للإبداع للمضي قدما في رحلته الوجودية عبر معاودته الاندماج في الحركة الكونية وفق ما سطر له في علم الله الأزلي"قد خلق الله الإنسان لا ليقهره أوليعجزه، لكن يرتقي به إلى مصادر القوة والقدرة والعلم، وكل ما تعطيه حيوية الإبداع، ليكمل مسيرته في الوجود عبر معاودة الاندماج بالوعي في الحركة الكونية ضمن منهجيتها الإلهية، فالمسألة القرآنية ليست في وضع القدرة الإلهية في مقابل الفعل البشري، ولكن في إعطاء الفعل البشري كامل حيويته ووضعه في اتجاه الإرادة الإلهية القائمة على وحدة الطبيعة الكونية السليمة"[18].

ب- إطلاقية القرآن الكريم كمرجع كوني مطلق متعال يسترجع الأنساق الحضارية والفكرية والديانات السابقة فيصحح المحرف منها بخطاب عالمي موجه لكافة الناس، ودون تمييز أو تفضيل إلا ما اصطفى الله لذاته المتعالية "كمحاولة للمساعدة في إيجاد حل لهذا المأزق الحضاري العالمي من خلال طرح رؤية كونية تتجاوز النظرة المادية واللاهوتية معا، "على أن تستمد هذه الرؤية من وحي الكتاب القرآني المطلق الذي يعادل موضوعيا مطلق الكون ومطلق الإنسان فالقرآن هو المعادل للوجود الكوني وحركته، وذلك بما يؤدي لتفعيل جدلية ثلاثية أطرافها الغيب والإنسان والطبيعة دون أن يستلب طرفا أخر، ويتم فهم الجدلية الثلاثية بمنطق الجمع بين القراءتين "[19].

لذا من الضروري التوجه للقرآن الكريم بقراءة علمية منهجية متسلحة بأدوات معرفية جديد من شأنها أن تحرر النص القرآني مما لصق به من ضمن ما يعرف بتاريخانية التراث لتفكيك مفهوم الدوغمائية وإعادة تركيبها بما يلق بمطلقتيه.

و هذا الأمر في تقدير حاج حمد لا يتحقق إلا من خلال منهج معرفي قراني جدلي يستوعب القرآن –الإنسان– الكون من خلال : أسلمة المعرفة -جدل الإنسان جدل الطبيعة جدل الغيب - و"الجمع بين القرائيتين" فماذا يعني بكل هذا ؟.

- قبل أن نصل الى ضبط هذه المفاهيم الفلسفية التي تأسس لمنهج أبي القاسم حاج حمد علينا أن نقف على بعض النقاط هي :

إن السقف الحضاري العلمي العالمي و جراء اعتماده على منهج التحليل التفكيك انتهى به الأمر الى ظهور عقلين اثنين هما:

1-العقل الاستدلالي: الذي يعتمد على العقل و تأملاته، وقد أفضى إلى نهايات لاهوتية خرافية.

2-العقل الاستقرائي: الذي يعتمد على التجربة المباشرة. وقد انتهى إلى تفكيك مطلق عجز فيها عن إعادة التركيب.

هنا يبدأ المنطلق لحاج حمد و ذلك بالتأسيس للمنهج الجديد يتجاوز فيه الاستلاب اللاهوتي والوضعي معا.

ولنبدأ بأسلمة المعرفة والقصد منها "..عقيدة وتصور ونظام فكري ورؤية ومنهاج وشريعة ونظام حياة للإسلام بالمعنى المعرفي الشامل المذكور، نظريته في المعرفة ومصادرها ومناهجها ومقاصدها ووظائفها في الحياة وما يترتب عنها "[20].

بهذا فهي تدفع بالدين إلى مراتب التنظيم والتفكير الذي يسمح للمسلم بتفجير قدراته العرفية والفلسفية والعلمية، بعيدا عن الطقوس المعلومة عن أي دين وممارستها بطريقة دوغماتية لا تحتاج إلى برهان، مسلم بقوى الطوطم الغيبية التي تتجلى في أرواح السلف بتعويذات غير مفهومة .

ومنها يمكن لأسلمة المعرفة أن تعمل "على وجوب تأمين وتحرير تلك المنجزات ضمن مفاهيم فلسفية، لا دينية، مادية إلحادية، وذلك بإعادة تفسيرها، وربطها بإطار قيمي إسلامي، موصول ومتصل بالهدى الإلهي، الذي بلغ الكمال وختامه الإسلام "[21].

ليأتي القرآن الكريم ككتاب متعال معادل ومكافئ للوجود الكوني المطلق وحركته كركن أساسيا يولد المنهج المعرفي الكوني بالتركيب مع العقلين الاستدلالي جدل الإنسان بحكم قوة الوعي الثلاثي :

السمع والبصر والأفئدة- و الاستقرائي: جدل الطبيعة: بحكم التحليل والتفكيك بعد أن استوعبهما بكيفية موضوعية وعلمية بعيدا عن النهايات المادية أو الوجودية العبثية، وبعيدا كذلك عن النهايات اللاهوتية و هنا تتأطر أسلمة المعرفة كإطار ناظم لهذا التركيب الثلاثي " إنها فلسفة وجود مطلق تجمع بين جدل الغيب الإلهي استنباطا من القرآن، وجدل الإنسان المطلق بذاته واللامتناهي النزوع، وجدل الطبيعة بمنطق علمي تحليلي إبستولوجي يعتمد على التفكيك والتركيب **معا**"[22].

إذن نحن أمام ثلاثة عناصر الغيب الإنسان الطبيعة هذه العناصر الثلاثة تتفاعل في بينها بطريقة جدلية مستبعدة بذلك التضاد وما ينتج عنه من إلغاء وإقصاء أو الحلول، فترفض بذلك أن يستلب طرف لصالح أخر.

هنا يشكلها القرآن ضمن الفعل الإلهي في علاقة مع بعضها من ناحية وتأثيرها المتصل بالكونية والإنسان المطلق عبر ما يعرف بالصيرورة من جهة، ومن جهة ثانية ليتأكد الحضور الإلهي في الوجود الكوني وحركته "فالجدلية في مفهومنا- تفكيكا وتركيبا- وهي جدلية غائية، محكومة في لحظتها بصيرورة غائية وتطورية غائية، فليست مثالية ولا مادية، لأنها ترتبط لدينا بمفهوم منهجية التشيؤ العلمية الوظيفية المرتبطة بمنهجية الخلق، وهي جدلية ذات مراتب، تأليفية وتوحيدية وإدماجية تبعا لمراتب العلاقة مع الله(عالم المشيئة- عالم الإرادة- عالم الأمر)"[23]

*لكن ما الغرض العلمي من أسلمة المعرفة ؟ .

- إنها بمثابة منهج عملي لحياة الإنسان بأبعادها الثلاثة الغيب والإنسان والطبيعة في ناظم جدلي ينفي الأحادية والجبرية.

-فلا الغيب يستلب الإنسان والطبيعة بمنطق لاهوتي فللإنسان جدله الوجودي وللطبيعة قوانينها.

- كما أن جدل الإنسان لا يستلب جدل الغيب، فالغيب يتداخل كونيا مع الإنسان والطبيعة من خلال مراتب الفعل الإلهي: عالم الأمر، عالم الإرادة، عالم المشيئة.

لهذا لا ينتهي جدل الإنسان إلى وجودية عبثية، ولا يستلب جدل الطبيعة الغيب لصالح قوانينها التجريبية وتطبيقاتها الصارمة.

"فحين تتحول إسلامية المعرفة بمنهجيتها الكونية الى واقع تطبيقي، بعد أن تحل مشكلات الوعي الزائف، فإن مآلها العملي هو إعادة صياغة واقع الإنسان واتجاهاته ونظمه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، بهدف تحريره من كل الاستلابات اللاهوتية والوضعية والبشرية"[24]

يجب أن نقف على ما يسميه حاج حمد الجمع بين القراءتين فما المقصود بها؟.

لقد وضحت سورة العلق الجمع بين القراءتين في قوله سبحانه تعالى "اقرأ بسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ".

إنها أولى سور القران الكريم ومستهلها ومنطلقه .

لقد أراد القرآن الكريم نفسه أن يمنحنا منهج البحث منذ البداية الأولى، حيث حدد ارتباط التفاعل بين جدليات ثلاث الغيب والإنسان والطبيعة في إطار كوني عبر الجمع بين القراءتين:

*القراءة الأولى تعمل على تحرير المعرفة الدينية من اسقاطات اللاهوت والأساطير والخرافات وانحرافات التأمل الذاتي، فهي تدفع بالوعي الإنسان أن يتعامل مع القران لممارسة الاسترجاع النقدي لكافة القضايا وأطروحات الموروث الديني.

-هي قراءة أولى بالله والوحي الإلهي وهي ليست قراءة صوفية عرفانية، بل قراءة محكومة وبقوة للقرآن الكريم بتوظيفاته الإلهية بدأ من الاستخدام اللغوي .

-كما أنها قراءة تأخذ بالقراءة الكلية للقراءة الكريم بعيدا عن تجزئته أو تبعيضه.

-كما أنها قراءة تسمو وتتعالى بالوعي الإنساني فتتحرر من الوضعية بكل أشكالها لأنها متعلقة بالله كخالق متعالي محيط بكل هذا الوجود ما يولد لديه على ضوء هذا الارتباط الإلهي الترفع عن فك الدم، والذاتية الضيقة التي ولدت النفعية وتوجتها بالليبرالية المتوحشة.

- والكف عن الاعتداء على الأخر بمنطق الصراع والصدام الحضاري ومفهوم العولمة وإفرازاتها السياسية والاقتصادية.

-ضبط علاقة العلاقات الاجتماعية والأخلاقية كضبط مفهوم الجنس والنوع الذي يتعدى العلاقة العائلية لمفهوم الجنس كلذة بيولوجية عابرة.

*أما القراءة الثانية فهي قراءة موضوعية بمعية الله والقلم، وهي قراءة يطلع ويتعرف من خلالها على الظواهر الطبيعية ويفهم مجرى وعلاقة قوانينها.

كما يتعرف على مفاصل التاريخ ومنعطفاته الكبرى وعلى التنوع الجغرافي وتوزيعاته وكافة انواع العلوم.

وكخلاصة فان القيمة المعرفية والمنهجية للجمع بين القراءتين،ضمن مساقات اسلمة المعرفة نقول أنها تعيد بناء وصياغة العلوم على نحو كوني تتكامل فيها كل العلوم الطبيعة والإنسانية وتفرعاتهما من تاريخ و سياسة واجتماع وأنواع الحاكمية وتناسخ الشرائع.

فالقراءة الأولى مهيمنة على الثانية في بناء وتحديد معالم المشروع الإسلامي العالمي كنقيض للوضعانية التي تكبد الإنسان وتقعده في نوازعها المادية الغريزية في الأرض دون الرؤية الكونية وتجلياتها الإلهية.

أما إذا جمعناها بالقراءة الثانية – القراءة بالقلم- فإننا سنتحرر من جنوح منهجي الاستدلال والاستقراء نحو المخارج المادية للوضعية والمثالية والوجودية العبثية. فنحن حين نسترجع العلم واستقراءاته والعقل واستدلالاته، الى مضمون القراءة الأولى فحن بذلك نتجاوز كلية المشكلات والمعضلات الزائفة والمفتعلة في كل الفلسفة الإسلامية. " هذه هي القيمة العلمية والمنهجية للجمع بين القراءتين، لتوليد إعادة صياغة كافة العلوم على نحو كوني وهذا جهد تأسيسي يتطلب المؤسسية والجماعية وفي مختلف المجالات التي يتكامل فيها من علوم الطبيعة وإلى العلوم الإنسانية وتفرعاتها ...وباختصار فحيث فكر الإنسان وأبدع يتولى الجمع يتولى الجمع ومراتبه إعادة صياغته باتجاه كوني"[25].

5. خاتمة:

من خلال ما قدمناه نصل إلى أن:

* الفصل بين القراءات اللاهوتية وبين النصوص القرآنية. والنظر إليها- اي النصوص القرآنية – على أنها لم تستنفذ بعد مقدرتها على مسايرة روح العصر بكل إفرازاته المادية والإنسانية

*الانهمام بالإنسان عموما وقضايا -المسلم المعاصر- خصوصا باعتباره خليفة الله في الأرض، فمن غير المعقول أن يمنحه الله مقومات الوعي الإنساني -سمع والبصر والفؤاد- ويسلحه بالحرية المطلقة والعلم النافذ ثم يأمر بالقعود والاستسلام للاستلابات اللاهوتية والوضعية والوجودية .

* إعادة قراءة النصوص القرآنية قراءة معرفية جديدة، تقوم على فهم كلي لآياته بعيد عن تجزئتها أو تبعيضها وربطها ربطا ممنهجا ودقيقا.

* النظر الى التراث على أنه موروث بشري واجتهادات أطرت في زمن معين دعت إليه الحاجة والضرورة، محددة بمناهج متاحة في وقتها وأدوات معرفية ابتكرت حينها لعالج قضايا كانت آنية وظرفية. هذا لرفع فكرة التقديس والتعظيم عن هذا التراث وأنه ليس وحيا خالصا ولا دستورا متعمدا، بل فيه ما يؤخذ وفيه ما يترك حسب الحاجة الراهنة لذلك .

* توليد منهج فلسفي جدلي من القرآن الكريم نفسه يقوم على جدل الإنسان والطبيعة والغيب والوقوف على نقاط تفاعلها مع بعضها البعض جمعا وتأليفا ودمجا والنتائج المحققة من ذلك، كل هذا لاستبعاد المخرجات التلفيقية أو التوفيقية التي يتم من خلالها معالجة القضايا الراهنة والتي زادت في حدة الصدام بين نصوص القران وإفرازات العصر الراهنة من العولمة أو العلمية .

6- قائمة المراجع:

1- حاج حمد محمد أبو القاسم.ابستومولوجيا المعرفة الكونية .دار الهادي .بيروت-طبعة 2004. صفحة 359

2- حاج حمد محمد أبو القاسم .القران والمتغيرات التاريخية والاجتماعية، حاج حمد ، دار الساقي-بيروت . صفحة 132

3- حاج حمد محمد أبو القاسم .منهجية القران المعرفية .أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والانسانية .دار الهادي .بيروت .طبعة الأولى 2003.صفحة 84.

4- حاج حمد محمد أبو القاسم.ابستومولوجيا المعرفة الكونية.المصدر نفسه . صفحة 19

5- أركون محمد .الفكر الأصولي واستحالة التأصيل .نحو تاريخ أخر للفكر الإسلامي. ترجمة وتعليق هاشم صالح .دار الساقي. بيروت الطبعة الأولى 1999. الصفحة 29

6- أمين سمير .برهان غليون –حوار الدولة والدين .دار الفارابي .بيروت .الطبعة الأولى 1996.صفحة 122-123

7- حاج حمد محمد أبو القاسم . القران والمتغيرات التاريخية والاجتماعية ، المصدر السابق. صفحة 95 .

8-جودت سعيد: فقدان التوازن الاجتماعي، دار الفكر المعاصر .بيروت، طبعة 2، 1994،ص20.

9- حاج حمد محمد أبو القاسم .العالمية الإسلامية الثانية ،الجزء الأول ،دار ابن حزم ،بيروت - طبعة 1996. صفحة 44

10- حاج حمد محمد أبو القاسم ، حرية الإنسان في الإسلام ، دار الساقي –بيروت-طبعة 2012.صفحة 41

11 - بن نبي مالك ، مجالس دمشق ، دار الفكر،بيروت. طبعة 2005 . صفحة 178

12- حاج حمد محمد أبو القاسم العالمية الإسلامية الثانية ،الجزء الأول ،دار ابن حزم ،بيروت - طبعة 1996. صفحة 476

13- المودودي أبو الأعلى ، الخلافة و الملك ،دار القلم ،الكويت . طبعة 1978، صفحة 11

14-مارتش اندروس– خلافة الإنسان السيادة الشعبية في الفكر الإسلامي الحديث –ترجمة أسامة عباس – مركز النهوض للدراسات والبحوث –بيروت- طبعة الأولى 2021. صفحة .168

15- حاج حمد محمد أبو القاسم .العالمية الإسلاميةالثانية الجزء الثاني المصدر السابق ، صفحة 174

16- حاج حمد محمد أبو القاسم ،الحاكمية ، دار الساقي ، بيروت - طبعة 2010، صفحة 45

17- بن نبي مالك . شروط النهضة . ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي .دار الفكر الجزائر دمشق .طبعة الرابعة .1987.ص124
18- حاج حمد محمد أبو القاسم العالمية الإسلامية الثانية ،الجزء الثاني ،دار ابن حزم ،بيروت - طبعة 1996. صفحة 30.
19- حاج حمد محمد أبو القاسم العالمية الإسلامية الثانية ،الجزء الاول . المصدر السابق ص484.
20 -العلواني طه جابر .نحو منهجية معرفية قرآنية دار الهادري .بيروت .الطبعة .2004. صفحة 221-222..
21-عرفان عبد المجيد فتاح .إسلامية المعرفة . ومنهجية التثاقف مع الغرب. مجلة إسلامية المعرفة العدد الثامن عشر. واشنطن. دت . ص 09..
22- حاج حمد محمد أبو القاسم.ابستومولوجيا المعرفة الكونية . المرجع السابق ، صفحة52 .
23- حاج حمد محمد أبو القاسم منهجية القران المعرفية. أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية .دار الهادي .بيروت .طبعة الأولى .2003.ص 235.
24-حاج حمد محمد أبو القاسم.ابستومولوجيا المعرفة الكونية . المرجع السابق ، صفحة 392.
25- حاج حمد محمد أبو القاسم.ابستومولوجيا المعرفة الكونية . المصدر السابق صفحة 86.